د. السعيد ضيف الله - جامعة الجزائر 02 - الجزائر

نظرية التأويل التقابلي، الانبثاق التصوري، وآليات التجسيد النصي
رؤية في مشروع الباحث المغربي محمد بازي

الملخص

يعد التأويل التقابلي اختبارا اجرائيا هدفه استجلاء المخفي، وإحضار الغائب ضمن السياق النصي، في فعل قرائي يشكل نظيرا مدهشا للفعل الكتابي، وهذا المصطلح (التأويل التقابلي)، منهج أتى به الباحث المغربي محمد بازي، الذي اشتغل على مشروع جاد ورصين، بذل فيه مجهودا معرفيا كبيرا، من خلال كتابيه: التأويلية العربية، وتقابلات النص وبلاغة الخطاب، الذي يروم إلى المساهمة في الكتابة الابستمولوجية في التأويلية العربية.

سنحاول في هذه المداخلة تسليط الضوء على نظرية التأويل التقابلي، بنوع من التركيز على مبادئها وأسسها وسبل تطبيقها في الحقل الأدبي، على اعتبار أن التأويل التقابلي صناعة ثانية تروم التأويل والفهم، تقابلها صناعة أولى أنتجت النص أو الخطاب المراد تأويله وفهمه.

الكلمات المفتاحية

التأويل التقابلي، آليات التجسيد، الانبثاق التصوري، نظرية التأويل، محمد بازي.

بذل الباحث محمد باز ي مجهودا معرفيا كبيرا من أجل أ ن يو جد مشروعا تأويليا أطلق عليه التأويل التقابلي، والذي يمكن توظيفه في فهم النصوص والخطابات أولا، ثم في إفهامها أو تدريسها ثانيا، بنوع من الجدة والإبداعية والفعالية التي عز نظيرها في كثير من المناهج التي احتكرت تحليل النصوص والخطابات.

أولا: عن الباحث

محمد جلال الدين بازي كاتب مغربي من مواليد سنة 1970. جمع بين النقد والإبداع. ابتدأ مشواره العملي من جامعة ابن زهر بأكادير. بحصوله على الإجازة في الأدب العربي سنة 1993. ثم حصوله على دبلوم الدراسات العليا سنة 1999 بجامعة محمد

الخامس بالرباط عن رسالة بموضوع: "النص واستراتيجيات التأويل مقاربة في خطاب التفسير" ثم على الدكتوراه في الآداب سنة 2006 من جامعة محمد الخامس بالرباط في موضوع (التأويلية العربية: تجليات التساند ومستويات انفتاح السياق). وحصل على شهادة التبريز في اللغةالعربية سنة 2009. نال جائزة المغرب للكتاب في صنف الدراسات الأدبية والفنية سنة 2010. عن كتابه (التأويلية العربية نحو نموذج تساندي في فهم النصوص والخطابات). ومنذ ذلك الوقت وهو يتنفس من رئة التأويل التقابلي. ويعمل على تطبيق منهجيته وتجريبه في كل الألوان الأدبية. أما فيما يخص إنتاجه فتنوع بين النقد والإبداع وعلوم التربية نذكر منها:

في الدراسات العلمية

- التأويلية العربية نحو نموذج تساندي في فهم النصوص والخطابات.صادر عن الدار العربية للعلوم ناشرون ومنشورات الاختلاف بيروت 2010.

- تقابلات النص وبلاغة الخطاب نحو تأويل تقابلي. الدار العربية للعلوم ناشرون. بيروت. 2010.

- العنوان في الثقافة العربية. التشكيل ومسارات التأويل. الدار العربية للعلوم ناشرون. ودار الأمان. 2012.

وفي الثقافة الشعبية نجد

- الجوهر المكنون من كلام أولاد ميمون. منشورات جمعية اولاد ميمون للتنمية والتعاون. مطبعة سوس/أكادير. 2010.

وفي الإبداع

- أمواج الجنة: نصوص أدبية من النثر الشعري، منشورات وزارة الثقافة. سلسلة الكتاب الأول. الرباط. 2010.

وفي علوم التربية

- صناعة التدريس ورهانات التكوين: منشورات مجلة علوم التربية . مطبعة النجاح الدار البيضاء. 2010.

ثانيا: حول المنهج

تقترح نظرية التأويل التقابلي بوصفها نظرية في مقاربة النصوص والخطابات تعريفا للنص، وهو تعريف غير تابع للأهواء والتغيرات، لأنه ينطلق من مبدأ كوني، وهو أن الكون ينتظم وفق أزواج متقابلة، فالنص" بنية من المتقابلات الظاهرة والخفية، النصية والمبنية على أفعال التأويل"(01). من هنا يظهر أن نظرية التأويل التقابلي كما طورها الباحث محمد

البازي تنظر إلى النص باعتباره فعلا تأويليا للكون، يقوم به المنتج لحظة انتاجه للنص، والمتلقي لحظة استقباله.

يتشكل الفهم انطلاقا من هذا التصور من مجموع العمليات الإدراكية التي يقوم بها المحلل المؤول، من أجل "اكتشاف حقيقة ممكنة كامنة في النص موضع القراءة، أو في ظاهرة من الظواهر التي حولنا. أو هو إعداد مشاريع في القراءة تنسجم مع موضوع الفهم"(02). فالفهم بالتقابل من هذا المنظور ليس أداة لفهم النصوص والخطابات فحسب، بل هو أداة مفيدة وناجعة في فهم العالم، الذي بني أصلا على التقابل.

يعمل التأويل على فهم الكل انطلاقا من الجزء وفهم الجزء انطلاقا من الكل فالفهم أساسا عملية إحالية أو يقوم على الاختلاف، إذ إن فهم الكلمة داخل الجملة مقارنة بكلمة أخرى أو اختلافا معها، وذلك باستحضارها على مستوى المحور العمودي/الاستبدالي كمعان وصور، وكذا بتميزها عن غيرها من الكلمات داخل السياق النصي أو على مستوى المحور الأفقي/التركيبي(03).

تمتد العلاقة التبادلية "لتشمل المفاهيم الذهنية، فكل مفهوم مفرد يستمد معناه من السياق أو الأفق الذي ينسلك فيه، ومع ذلك فإن الأفق أو السياق إنما يتكون في حقيقة الأمر من العناصر نفسها التي يضفي عليها معناها وخلال هذا التفاعل الجدلي بين الكل والجزء يمنح كل منهما الآخر معناه ومغزاه"(04).

تعريف التأويل التقابلي

يعمل الباحث محمد بازي على جعل التقابل آلية إدراكية وتواصلية إنسانية يتوسل بها الأفراد لبناء المعاني وتحصيلها. فقد نَقَلَ الباحثُ مفهوم التقابل من مجاله الضيق المرتبط - أساسا - بعلم البديع في البلاغة العربية، إلى مفهوم تأويلي قوامه العملُ على محاذاة المعاني بعضها ببعض والتقريبُ بين العناصر والمستويات ذهنيا عبر إحداث تواجه بين بنيتين أو وضعيتين أو موقفين.

فيعرف التأويل بقولة: "هو إعادة بناء المعنى النصي أو الخطابي وبيانه فهما وتفهيما سواء تمّ عبر ظاهر الألفاظ، أو تمّ تجاوز الظاهر نحو البنيات العميقة للمعنى، والتأويل هو الحقيقة التي يؤول إليها الكلام أي حقيقته الأولية التي يراد تعرف المخاطبين عليها، فالتأويل أول المعنى وحقيقته وفي الوقت ذاته مآله في فهم المتفهمين"(05).

هذا التعريف لا يختلف عن تعريف القدامى للتأويل سواء من الناحية اللغوية أو الاصطلاحية التي تحملها دلالة التأويل من الرجوع إلى أول الشيء أو البحث في مآله(06) بل إن الباحث يجعل من التفسير والتأويل شيئا واحدا من خلال قوله: "سواء تمّ عبر ظاهر

الألفاظ، أو تمّ تجاوز الظاهر نحو البنيات العميقة للمعنى" لأن الباحث كما سبق ذكره يعتبر منهج المفسرين نظرية متكاملة في التأويل، مع أن القدامى وإن كان الأوائل منهم لم يفرقوا بين التفسير والتأويل، فإن المتأخرين قد تنبهوا لفروق كثيرة منها أن التفسير "مرتبط بظاهر اللفظ وفق ما جرت عليه عادة التواصل عند أهل الخبر والمعنى الظاهر هو الحاصل من علاقة الدال بالمدلول وفق أسس التواضع وملكة اللسان"(07). في الوقت الذي يعني التأويل الإبانة التي يحتاج إلى العودة والمراجعة حتى يتضح المعنى. وذهب آخر إلى القول بأن التفسير بيان لفظ لا يحتمل إلا وجها واحدا، والتأويل توجيه لفظ متوجه إلى معان مختلفة إلا واحدا منها بما ظهر أدلته".

أما التأويل التقابلي فيعرفه بأنه "أداة بيان المعنى وتفهيمه، عبر إحداث التقابل بين المعاني والعناصر بما يوضحها أكثر، لأن التقابل حاصل في التفكير المنتج للغة وفي انتظام المعاني ويجليه التقابل بمستوياته الكثيرة ومظاهره التي ينفسخ لها ذكاء المتفهم واجتهاده".

فالتأويل التقابلي في صورته البسيطة ينبني على رصد التقابلات داخل بنية اللغة على اعتبار أن نظام اللغة قائم على التقابل، والذي بمعرفته سيساهم في فهم المعنى لدى الذكي المتفهم.

إن التقابل في تصور صاحب النظرية التأويلية التقابلية هو "محاذاة المعاني بعضها ببعض، والتقريب بينها في الحيز الذهني التأويلي لإحداث تجاوب ما، أو تفاعل معرفي وإضاءة بعضها للاخر. وهو خاصية تواصلية وإدراكية، فالأمور تفهم وتُتمثل بشكل أفضل بعرضها على مقابلاتها، بل إن الحياة مبينة على أساس تقابلي: تخالفي أو توافقي أو نقيضي، فما في الوجود شيء إلا وفيه ما يقابله(08).

إن الباحث يجعل الأمور تُفهم وتُتمثل بشكل أفضل بعرضها على مقابلاتها، فجميع النصوص والخطابات مبنية على هذا التقابل، وجميع النقاشات والحوارات تكون مبنية عليه، ولن يكون التواصل بين شخصين إلا اذا بدأ الأول بالكلام وردّ عليه الثاني بكلام يقابل كلامه، وإلا فلن يكون هناك تواصل بينهما.

لإيضاح نظريته قدم محمد بازي مجموعة من المفاهيم التي مكنته من الفهم والتأويل البليغ لمجموعة من النصوص المختلفة، وهي مفاهيم من شأنها أن تمدّ كل مهتم بأداة إجرائية صالحة لمقاربة مختلف النصوص والخطابات. وترجع هذه المفاهيم في عمومها إلى مفاهيم موجودة في حقول معرفية أخرى وُظفت كما هي في الحقول المعرفية، وأخرى موجودة لكن الباحث أضاف إليها ما ينسجم مع نظرية التأويل التقابلي، أو قدمها بما ينسجم معه،

ومفاهيم أخرى اكتشفها الباحث وأبدعها، فلم يكن بذلك مستقبلا للمفاهيم ومتقبلا لها، بل استطاع إنتاج مفاهيم أخرى جديدة، مكنه منها التأويل التقابلي.

ويمكن إجمال المفاهيم التي وظفها الباحث خلال تعامله مع النصوص في مفاهيم متعددة أهمها: (تقابل الإثبات والنفي، تقابل الأمكنة، التقابلات الاستتباعية، التقابلات الصغرى المؤطرة، التقابلات الكبرى، التقابلات النصية المؤطرة، تقابل التحاور، تقابل التراتب، تقابل التشارك اللفظي، تقابل التشاكل، تقابل التصدير، تقابل التفارق، تقابل التمثيل، تقابل التناسب، تقابل الحاضر والغائب، تقابل حال الذوات، تقابل الخطاب التقابل الزمني، تقابل الصيغ والأوزان، تقابل الظاهر والباطن، تقابل المعنى ومعنى المعنى،تقابل المقاصد، تقابل النسق، تقابل النص وسياقه، التقابل النظيري، تقابل النظائر النصية، التقابل النقيضي، تقابل النص والعنوا، تقابل المقاطع والفقرات، البناء التقابلي الظاهر والخفي، تقابل العوالم المادية والمعنوية، التقابل الكوني، تقابل الذوات، تقابل الحضور والغياب، تقابل الكم والكيف، تقابل الأفضية (الأمكنة والأزمنة)، التقابل الخفي في البنيات الاستعارية والمجازية، التقابل المستهدف، التقابلات الأفقية والتقابلات العمودية، الخ.

ويمكن القول أن هذه النظرية تتميز بجهاز مفهومي غزير، وهذا يدل على أن المفهوم الأصلي - أي التأويل التقابلي - له قدرة فائقة على التشعب إلى مفاهيم إجرائية أخرى، و"هذا المفهوم مؤشر قوي على أن إجراءات تأويلية التقابل تستطيع النفاذ إلى تفاصيل الظاهرة النصية والخطابية، وعلى التموضع المنهجي المناسب، والمتلائم مع خاصياتها، ومميزاتها"(09).

ثالثا: المرجعيات النظرية للتأويل التقابلي

ارتكزت هذه النظرية في بناء منطلقاتها وتصوراتها على مرجعيات متعددة، أجملها محمد بازي في "البلاغة العربية القديمة، ونظريات التلقي والتأويل الحديثة، وعلم النص، وتحليل الخطاب، وكتب التفسير، والشروح الشعرية، وعلم الأصول، والفلسفة، والمنطق، والمناهج النقدية، وكتب الأدب، والمعاجم، والموسوعات، وكتب السير والأخبار والدواوين، وكتب تاريخ الأدب، والدراسات النقدية القديمة والحديثة، ونظريات الأدب، والتداوليات (علم التخاطب) وغيرها(10).

ويمكن القول أن التأويل التقابلي استفاد في بنائه للمفاهيم المتعلقة بفهم النصوص والخطابات من جهود منهجيات أخرى سابقة، التقت معه في بعض اهتماماته. فهو منهج لم يأت من أهواء صاحبه، أو من العدم، بل جاء بعد بحث عميق وتقليب جاد في مرجعيات مختلفة، بغية الاستفادة منها في بلورة منهجية متكاملة.

يلخص محمد بازي كيفية الاشتغال في إطار النموذج التقابلي بكون "لا ينطلق من خارج تراكمات العلوم النصية واللغوية والبلاغية والسيميائية والاجتماعية والتداولية، بل يتزود منها حسب حاجاته، يأخذ منها ما ينفع في تحقيق الاشباع الدلالي، وانسجام التأويل، أ ي ما يُنتج في نهاية المطاف قراءة مؤولة بليغة، وقادرة على السفر مع النص عبر رحلته التاريخية في عوالم التأويلات الممكنة والمحتملة، إن كان جديرا بذلك. وقد تتوقف رحلة النص والتأويل معا، لعدم قدرة النص والتأويل معا، لعدم قدرة النص على الصمود أمام تبدلات الزمن، حينئذ لا معنى لتأويل يستمر دون نص مستمر ومتفاعل مع الحياة"(11).

رابعا: مراحل تكوين نظرية التأويل التقابلي

حاول الباحث عند تكوين نظريته تتبع مرحلتين هما:

المرحلة الأولى

وفيها سعى الباحث محمد بازي الى تأسيس التأويلية العربية في نموذج تساندي لفهم النصوص والخطابات انطلاقا من منهج المفسرين وشرّاح الشعر، ظهر فيها التأويل التقابلي كآلية في هذا النموذج إلى جانب تساند الدوائر النصية مع الدوائر السياقية. وهذا الكتاب يجمع بين التنظير والتطبيق. والذي حاز من خلاله على جائزة المغرب للكتاب سنة 2010.

المرحلة الثانية

فتعتبر مرحلة تعديل النموذج ونضج التصور لاكتمال (نظرية التأويل التقابلي) التي أصبح التقابل فيها فضلا عن كونه نظرية فهو نموذج ومنهج واستؤاتيجية ومرجعية بنائية وتفسيرية لكل ما سبق.

وتمثل في كتابه (تقابلات النص وبلاغة الخطاب) والذي عمل فيه على تجريب آليات التأويل التقابلي بقراءة مجموعة من النصوص والخطابات.

1. التأويلية العربية نحو نموذج تساندي في فهم النصوص والخطابات

صدر الكتاب عن منشورات الاختلاف.الجزائر والدار العربية للعلوم ناشرون. بيروت. سنة 2010.

وفيه بنى الكاتب عمله من خلال رصف بديع، مزج دونما خلط بين الكتابة العلمية الموضوعية. واللغة الأدبية الانزياحية. فيكون أول ما يصادف القارئ استهلال بعنوان: استوت خرائط الروح وساوتها خرائط التأويل. ثم أتبعه بسبعة مفاتيح جمع فيها الكاتب مختلف النظريات والتوجهات حول التأويل. ثم ختم الكتاب بثمانية أقفال.

يُلح المؤلف أن اشتغال التأويل في الوعي البشري يرتبط بسؤال المعنى، من حيث بناؤه إنتاجات واختيارات المؤلف، بجعله غامضا أو واضحا أو مقتفيا مساراته ومقاصده، وهو ما

دعاه للانطلاق في المباحث المتصلة بالتساند التأويلي وتجلياته من سؤال قاعدي: ما الذي يحقق لدى قارئ معين بلاغة تأويلية كما تحققت لصاحب النص بلاغة إنتاجيه؟

أراد محمد البازي من خلال كتابه (التأويلية العربية: نحو نموذج تساندي في فهم النصوص والخطابات) إلى توضيح هذه الآلية بمختلف مستوياتها وآلياتها ومسالكها، حتى تشكل نواة لمنهجية تأويلية تقابلية، "يعتمدها المؤولون في فهم الظواهر من حولهم، نصية كانت أو غير نصية اعتمادا على شبكة من البنيات المتعارضة أو المتراتبة أو المتخالفة أو المتماثلة، على أساس تقابلي، يمكن من إبراز المعنى في أحسن صورة"(12). كما عمل الباحث على إعادة بناء مفهوم التأويل برسم الحدود بين مفهومي التأويل والتفسير. معتمدا في ذلك على القرآن الكريم والنصوص الحديثية، وأقوال العلماء كالسيوطي والزمخشري والشاطبي.

إذا طمح الباحث إلى بلورة نظرية تأويلية بالاعتماد على الكتابات التراثية في مقدمتها التفاسير والشروح لاعتقاده أنها خير نموذج تستنبط منه آليات التأويل القادرة على فهم النص وقد استوت شروط القراءة التي تنادي بها الدراسات الحديثة في هذا النموذج. فهو يرى "أن الثقافة التأويلية العربية القديمة تسندها ثوابت عامة هي بمثابة آليات إلزامية نابعة من النسق الثقافي والمعرفي العام ومن متغيرات تلحظ في تمييزهذا المؤول عن ذاك، على مستوى المذهبية أو الموهبة التأويلية أو اتساع محدودية ذخيرته أو موسوعية. وهي في جميع الحالات غير مصرح بها في مقدمات التفاسير أو الشروح كاستراتيجيات منتظمة بهذا الشكل الذي حددته وإنما يكشف دارس الخطابات التأويلية عن مجالاتها والإطارات التي تلمّها، ويجد في الخطاب التفسيري ما يستدل بشكل كاف على ذلك"(13). فما لم يقم به أصحاب التفاسير والشروح من تنظيم قواعد الفهم لديهم في شكل نظري يحتذى به هو في حقيقته موجود كإستراتيجية، قادرة على أن تصوغ قواعد بلاغة تأويلية - خاصة بالنص الديني - أمتن وأوسع وأعرق بكثير مما توصلت إليه تأويلية النص الأدبي الغربية"(14).

ثم بنى الباحث منهجيته في التأويل و سماها (النموذج التساندي)، ويقوم هذا النموذج على الحوار بين مكونات النص الذاتية وبين محيطه النصوصي والمعرفي، أي كل ما يتصل به ويتناص معه، مما سبقه أو جاء بعده. هكذا تصير الإستراتيجية التأويلية التي تخدم النموذج التساندي في التأويل، هو التأويل التقابلي.

ومصطلح التقابل عند الباحث هو: "محاذاة المعاني بعضها ببعض، والتقريب بينها في الحيز الذهني والتأويلي، عبر مواجهتها ببعضها (وجها لوجه)، لإحداث تجاوب ما أو تفاعل معرفي، أو دلالي تأويلي" ومن ثمة يصبح التأويل عنده كل فعل قرائي يروم بناء المعنى، استنادا

إلى أدوات ومرجعيات وقواعد في العمل". يحدد الباحث أهم ملامح التأويل التقابلي و التي تتمثل في:

التقابلات الصغرى

ويقصد بها التقابلات النصية التي تتجاوز حدود التضاد والتناقض إلى الترادف والتناظر. وقد ضم الفصل التاسع اثنين وعشرين تقابلا تنضوي تحت هذا القسم. نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر ما يلي:

- (التقابل النقيضي)، (الطباق)، (التقابل النظيري)، (التقابل الافتراضي)، (تقابل الخطاب)، (تقابل الأمكنة) - (التقابل التمثيلي)...

التأويلات التقابلية الموسعة

وتعني عند الباحث كل الأشكال الممكنة، التي تتجاوز الكلمة والجملة، وتوسِّع أفق الإدراك والتأويل، وتتجلى هذه التقابلات في:

- تقابل النص موضوع الفهم ونظائره أو أشباهه، من إنتاج مؤلف واحد أو مؤلِّفين مختلفين.
- تقابل النص و سياقه التاريخي أو النفسي أو الاجتماعي.
- تقابل نصوص الديوان الواحد، أو الغرض الواحد.
- تقابلات النسق التواصلي للخطاب.
- تقابل النص والعنوان.
- تقابل الفقرات وتقابل الوحدات و المقاطع.
- التقابل النووي والتقابلات الاستتباعية.

2. تقابلات النص وبلاغة الخطاب قراءات تأويلية تقابلية

يتضمن الكتاب مُقدِّمات لنظرية تأويلية تقابلية مُوَسَّعة على درجة كبيرة من العمق والأهمية الأدبية والنقدية والتأويلية، فعمد الباحث في مؤلفه بعد الاطمئنان إلى مقترحه القرائي. إلى تجريب منهجية التأويل التقابلي في قراءة مختلف النصوص والخطابات. وبعد تقديم موجز للكتاب. انطلق الباحث إلى مقاربة الخطاب القرآني من خلال سورة الفاتحة في مبحث بعنوان (ثراء الفاتحة) بإعادة بناء معاني سورة الفاتحة الكريمة لإبراز بلاغتها وإعجازها، وتقريب معانيها إلى القراء استنادا إلى المقترح القرائي المشار إليه. ثم مقاربة نص شعري قديم هو مرثية مالك بن الريب التميمي. ونص شعري حديث هو قصيدة (نسر) لعمر أبي ريشة. وقد اكتست المقاربة طابعا تحليليا وتقابليا وتأويليا، يروم بالأساس التأكيد على فعالية وإجرائية الإستراتيجية المقترحة للوقوف على بلاغة الخطاب الشعري. إلى جانب ذلك عمد الباحث إلى مقاربة الخطاب التأويلي مقاربة تأويلية تقابلية. من خلال عَملي كل من عبد

الفتاح كيليطو ومحمد مفتاح في قراءتهما للكرامة الصوفية وهذا لأن التقابل يسع كل الألوان الأدبية والذي مَكَّنَه هذا الإجراء من الوقوف على الآليات العميقة العاملة في خطاب التأويل عندهما. ثم انصرف العمل في الفصل الأخير إلى قراءة خطاب الحكمة من خلال نص حكمي من كتاب المحاضرات للحسن اليوسي.

وضمن محور الأساس التقابلي في البلاغة العربية تطرق الباحث إلى:التقابل الخفي في البنيات التشبيهية، البعد التقابلي في التمثيل، التقابل الخفي في البنيات الاستعارية والمجازية، المقابلة بين الحقيقة والاستعارة وتبيان الأبلغ، التقابل الخفي في ظواهر بلاغية أخرى (التشطير، الاستشهاد، التَّعَطُّف، التقابل في المضاعفة، التقابل في التلطف، الأخذ ووجوه التقابل، المطابقة والمقابلة، التقسيم، الأَرْداف والتَّوابع، الكناية، التعاكس، السلب والإيجاب، الاحتباك والحذف، المجاورة...).

وتناول محمد بازي في بعض فصول نظريته التأويلية التقابلية ما يتعلق بالكَوْنُ المُتَقابِل، الأزواج وانتظام الكون، الكون المتقابل في القرآن الكريم، التقابل وتطالب المعاني، من بلاغة النص إلى التأويلية البليغة، التقابل على مستويات: الكلمة والجملة، ثم النص والخطاب مع التمثيل لذلك، مقترِحا مفهوماً للنص اعتماداً على التصور التقابلي، ومقدِّما مقترحات حول خطاب النقد، مصداقية النقد ووظيفته،النقد ومؤسسة الأدب، مؤسسة النقد، النقد ونظرية النقد، والنقد ونقد النقد.

ومنه فكتاب: (تقابلات النص وبلاغة الخطاب نحو تأويل تقابلي) يستند على قوة اقتراحية أساسها التأويل التقابلي، باعتباره إستراتيجية قرائية في صناعة المعنى، يمكن الاشتغال بها لفهم النصوص والخطابات المختلفة (الأدب، النقد، النصوص الفلسفية، النصوص الدينية، الخطابات السياسية..) وخاصة الموجهة للتلقي والدراسة والتحليل في المحافل التعليمية (المدرسية والأكاديمية).

يقوم المقترح القرائي في هذا الكتاب على المزاوجة بين التقديم النظري الموجز، والتقريب التمثيلي والتطبيقي المبسط لإستراتيجية التأويل التقابلي؛ وسيلاحظ القارئ أن مستويات التناول تختلف من نص لآخر، كما أن المفاهيم الموظفة في القراءة متباينة، وهذه سمة مميزة للتأويل بالتقابلات، فهو يتجاوز الحدود الضيقة، والإجراءات المنهجية الرتيبة والمتكررة في التناول، ويفتح المجال واسعا في كل قراءة نصية للإبداع، بالقدر الذي يظهر قدرة صاحبها على الاكتشاف، وابتكار مداخل قرائية قادرة على التفاعل مع النص وتذوقه.

خامسا: فرضيات النظرية

قسم الباحث فرضيات النظرية إلى فرضيات كبرى مؤطرة تأسست عليها النظرية وأخرى صغرى متغيرة تابعة، ترتبط بقارئ معين، أو بتجربة قرائية خاصة تسبق أي تأويل لنص من النصوص، أما الكبرى فأجملها في النظر الشمولي إلى الكون على أساس تقابلي، تقابل العوالم، والأشياء، والألوان، والكلمات، والوضعيات، والعلاقات، في أقصى ما يحمله ويحتمله التقابل من امكانات.

أ. النص عالم من المتقابلات الظاهرة والخفية، النصية والمبنية عبر أفعال التأويل.

ب. منتج النص يحوّل العالم المتقابل في تفاعله مع الذات، الى عالم من المعاني المتقابلة عبر استيراتيجيات تعبيرية مختلفة، إنه نظم للمعاني المتقابلة حسب إمكانات التعبير، ومقاصد التأليف، وضوابط الصيغ الجمالية.

ج. هذه التقابلات الظاهرة والباطنة لها من القوة الظاهرة والخفية ما يبلغ المقاصد والغايات من التأليف والإنتاج، ويحقق التأثير المرغوب فيه.

د. نفترض أن هذه التقابلات المؤسسة للمعنى هي جوهر الأصل، والروح البانية للمعاني والتصورات، وهي محمولة إلينا عبر الكلمة المفردة، والجملة، والنص، والخطاب، ومستلزمات السياق الخارجي، والثقافة والموسوعة، والمعارف الخلفية المشتركة.

هـ .كل نص هو بناء تقابلي يعكس الخطاطات الأولية للمعنى عند منتجه، وعلينا تتبع هذه الخطاطات عبر تشريح تجزيئي للمستويات البانية للنص (الحرف، الفعل، الكلمة، الجملة، العلاقات الداخلية، الترتيب، المساق، والسياق...).

سار الباحث في إثبات صحة فروضه عبر عدة مسالك مستعينا بالبلاغة العربية القديمة التي حوت التقابل والدراسات العربية والغربية الحديثة وما أنتجته من نظريات. فحاول أن يثبت تقابلية الكون في المسلك الأول حيث يرى أن ملاحظة الظواهر تقتضي حضور زوجها إما حضورا ماديا أو معنويا، إذ مثلما تتقابل الماديات في الكون المادي تتقابل المعنويات في الكون المعنوي، يستدل بقوله تعالى ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾(15). فهو يرى أن الكون المتقابل في القرآن الكريم خير دليل على انتظام الكون بشكل تقابلي.

وهذا التقابل لا يوجد في النصوص والخطابات فحسب، بل هو معطى كوني وحياتي، عبره يمكن فهم الوجود، والعلاقات بين عناصره كيفما كانت، فقد خلق الكون على نحو متقابل، والتقابل لا يكون" إلا عبر حضور أحد العناصر مقابل عنصر آخر"(16) ، بحيث تتواجه في الكون الأشياء، والأشخاص، والأوضاع، والحالات،و الأحاسيس والألوان،

والأشكال، وغير ذلك، وقد يكون ذلك واضحا أو خفيا، كما أن التوجه قد يكون ثنائيا أو ثلاثيا أو رباعيا... الخ.

وقال أيضا: ﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ :"الزخرف 12"(17). تدل حقيقة أن المخلوقات بمختلف تمظهراتها وتلاوينها أزواج على أنها مبتدعة ومحدثة مسبوقة بالعدم، خلقها واحد أحد، فرد مطلق منزه عن الند والمقابل والمعاضد والمعارض، هو الله "الذي يقدر على خلق الشيء وخلافه، وابتداع زوجين من كل شيء"(18).

اختار الباحث مثالا الفاتحة أم الكتاب، التي اشتغل عليها الباحث تركيبيا ودلاليا وتداوليا، موظفا المقاربة التقابلية، بدءا من (الحمدُ) كمبتدأ مطلق الدلالة، والمحور (لله وحده)، وبؤرة مقابلته هي (لا لغيره أبدا). وسلك نفس المسلك مع كل الآيات في اتِّساق بديع يُضيف شغفنا إلى الشغف بقراءة ومحاولة فهم كتاب الله. وفي مقام آخر، خصَّ أبا حامد الغزالي - الذي لا يُخفي المؤلّف الإعجاب بطريقة كتابته، والإدمان على قراءة كتبه - وبيّن عبر نفس المنهج كيف يُوظف الإمام الغزالي التقابلية في الرد على الخصوم، موظفا بناء حجاجيا سهلا وصارما، إذ يوضح الأمثال بأمثالها، وهذا موضوعٌ نرى أن ننزهه هنا عن الخوض فيه. لقد قرأ إذاً خطابين دينيين، أي تعامل مع كتاب الله جلَّ جلاله، فأضاف إلى إفهامنا، وتعامل مع الإمام، فأوضح بناء حجاجه، إذ يتصور هو نفسُه وجود التقابل بين كل الموجودات.

ويمكن القول أن الباحث هدف في عمله إلى ما يأتي:

أ. الإلحاح على أن المقاربة التقابلية آلية ناجعة لمقاربة النصوص والخطابات على اختلاف مرجعياتها وأزمنة إنتاجها ومذاهبها، والدليل ماثلٌ أمامنا من مقاربة فاتحة الكتاب العزيز، مرورا بالخطاب الديني، ثم الشعر القديم، وقوفا عند التجربة الشعرية المعاصرة، ووصولا إلى الأعمال التأويلية الرائدة عند كل من كيليطو ومفتاح، موازاة مع استحضار المنجزات النقدية الغربية المتمثلة في اشتغال أعلامها الكبار.

ب. الحث على المزيد من تراكم منجزات هذه المقاربة في إطار بناء مشروع كبير وهام، له شموليته وقوته ونجاعته.

سادسا: نموذج تمثيلي لنظرية محمد بازي التأويلية التطبيقية

لقد غلب على المقاربات التأويلية للنماذج التي اختارها الباحث تتبع التقابلات في النصوص والخطابات ومحاولة تحليلها بالمقارنة للوصول إلى مقاصد النص التي يبدو أنها متجلية سلفا دون الاهتمام بجمالية المعنى أو الوصول إلى مقاصد النص كما كان يرجو. فحاول الإكثار من النماذج التي قاربها الباحث بمقاربته التأويلية التقابلية، ومن النماذج التي

مثّل لها في نظريته حكاية صغيرة من حكايا (كليلة ودمنة) فبإمكان هذا النموذج أن يبين مدى فاعلية النظرية في قراءة النصوص من ضعفها.

ينطلق كتاب كليلة ودمنة - حسب الباحث - من فلسفة تقابلية موجهة، وخطة سردية واحدة يدير خيوطها الملك دبلشيم، فهو الذي يقابل بين موضوع القصة ورغبته في ضرب مثل من الأمثال حول قضية تخصّه مثل تسيير الملْك أو تفيد الإنسان بصفة عامة. ولهذا نجد هذه اللازمة تتكرر في بداية كل باب (قال دبلشيم الملك: قد سمعت المثل فاضرب لي مثلا في الشأن)، فالذي يتغير هو موضوع كل باب وتبعا لذلك تتغير شخوصه وعوالمه، وتتقابل الحكايات تقابلا تتابعيا، وتقابلا تعالقيا وتتميميا، وكأنها مقاطع صغرى في بنية سردية كبرى(19).

قسم الباحث الخطاب في (كليلة ودمنة) إلى ثلاثة أنماط وفق طبيعة شخوص الحكاية: فالخطاب الرمزي تمثله القصص التي جاءت على ألسنة الحيوانات، والخطاب الشفاف شخوص قصصه بشرية، أما الخطاب الشبه شفاف فهو الذي مزج بين النوعين السابقين، ثم يقابل هذه الخطابات بمتلقين حسب مستوى كل خطاب" خطاب رمزي (مقابل) الحكماء والفلاسفة، وخطاب شبه رمزي (مقابل) الملوك والعوام، وخطاب غير رمزي شفاف العامة من الناس"(20).

قصة الحمامة ومالك الحزين

رغم أننا بصدد قراءة قصة واحدة قصيرة جدا فإن ورودها ضمن مجموعة (مظلة في قبر) يفرض علينا قراءتها في سياقها، بل ندعي أن عنوان المجموعة يحمل من الدلالات والأبعاد ما يساعد على طرح فرضيات ملائمةلإنجاز قراءة تأويلية تخييلية.

هي حكاية تجعل مالك الحزين رمزا لسداد الرأي ونصرة الضعفاء المظلومين ومنحهم الأمان والحياة. وهو مايولد في القارئ أفق انتظار الأمل والكياسة وهزم الشر والعدوان. لكن اسم الطائر نفسه يحتمل قراءة مخالفة تماما تجعل مالك الحزين مسكونا بالحزن والهزيمة، وهي مفارقة أخرى تنضاف إلى المفارقات السالفة. اسم الفاعل (مالك) يسند، إذن، لهذا

الطائر صفة حيازة الحزن والهم كهوية مميزة له. وما دمنا بصدد قراءة مقصرة من أهم مميزاتها المفاجأة والتخييب. وما دام العنوانان الأكبر والأصغر يوحيان بالمعنى ونقيضه فإن القارئ يدخل عالم هذه المقصرة حذرا وجلا منتظرا كل الاحتمالات الايجابية والسلبية والمفارقات والتحولات كفرضية استباقية مؤقتة يتسلح بها لولوج عالم هذه المقصرة.

ملخص القصة

كان الثعلب يهدد الحمامة التي تعيش على رأس النخلة بالصياح إن لم ترم له فراخها، مرّ بها الملك الحزين فعلم منها حالها وسبب حزنها، فقدم لها النصيحة بأن لا تفعل في المرة القادمة وإن استطاع الثعلب الصعود إليها فيفعل وتطير هي سالمة. فحين أقبل عليها الثعلب كعادته لم تستجب له. هنا علم الثعلب بأن هذه ليست حيلتها، فاستخبرها الأمر وعلم أن مالك الحزين صاحب النصيحة، فاتجه صوبه حيث يتواجد على شاطئ النهر، وبحيلة منه وهو يحاوره استدرجه إلى حتفه حتى تمكن منه وانقض عليه، ثم قال: يا عدو نفسه، ترى الرأي للحمامة، وتعلمها الحيلة لنفسها، وتعجز على ذلك لنفسك، حتى تمكن منك عدوّك؟(21).

وهنا يمكن الارتكاز في قراءة هذه الحكاية على الجوانب التالية: "القوى الفاعلة المتقابلة في النص: الثعلب مقابل الحمامة ومالك الحزين وهما طائران. إن اختيار هذه الأنواع دون غيرها عند صوغ الحكاية نابع مما تحمله من دلالات، يمكن فهم ذلك أكثر من خلال التحليل بالمقومات"(22).

لم يكن الباحث بحاجة إلى التحليل بالمقومات(23) لأن هذا التحليل لا يعكس حقيقة هذه الحيوانات على أرض الواقع وانما مجرد وصف لملامحها من خلال السياق القصصي الذي وظفت فيه. فكانت الحمامة الوديعة قليلة الحيلة وملك الحزين الودود المحب للخير الناصح والمغفل أما الثعلب الذكي المعتدي الماكر المحتال. ليبدأ الباحث باستخراج تقابلات النص واحتمالات التأويل لأجل قراءة رمزية وتقابلية على حد تعبيره، فكانت التقابلات كما يلي: الحمامة (مقابل) رأس النخلة (مقابل) العش (مقابل) البيض (مقابل) الفراخ (مقابل) الثعلب (مقابل) الفراخ (مقابل) الثعلب، ملك الحزين (مقابل) الريح...؟(24).

ننبه إلى أن الثعلب يفترض أن يكون مقابل للملك الحزين لكن يبدو أن لفظة (مقابل) سقطت سهوا. يحاول الباحث بعد ذلك تحليل هذه التقابلات وتبيان العلاقة بينها وكيف أسهمت في بناء المعنى، فيتحدث بلغة بسيطة عن الحيوانات التي تخرج من دائرة صفاتها إلى دائرة الصفات البشرية من أجل أن تصنع بعدا رمزيا يراه الباحث أنه نظام تقابلي، ليتبع هذه الرموز الحيوانية التي تتفق فيها كل الثقافات، فالثعلب رمز للمكر والحيلة والحمامة

الوادعة والسلام والأسد للشجاعة... وغيرها. ولكنه يهتم الباحث بتحليل رموز القصة حسب أدوارها في الأحداث بل كان يريد من قراءة القصة في ظل مقاربته التأويلية أن يثبت فقط أنها قائمة على التقابل، ولكن كيف يوصل التقابل إلى المعاني الخفية؟ لم يستطع الباحث الوصول إلى ذلك، لأنه قيد نفسه سلفا بالمقصد المصرح به في بداية الحكاية وهو طلب الملك دبلشيم من بيدبا الفيلسوف أن يحكي له عن مثل الشخص الذي يرى لغيره النصيحة ولا يراها لنفسه(25).

فلو اخذ بالرمزية في هذه القصة حتما أن ما ذكره الباحث لا يخدم معاني القصة ويناقضها لأننا حين نتقبل أن الحمامة رمز السلام قد جسدت معاني الخوف لأنها كانت تقدم فراخها وجبة جاهزة للثعلب دون أية محاولة لإنقاذهم، فهل يعني أن السلام في حد ذاته يتضمن الخوف والغباوة والوداعة محض سذاجة ؟ لأن الحمامة لو امتنعت فقط عن رمي فراخها للثعلب لما فقدتهم. وإن سرنا وفق هذا التحليل سيصبح الفهم ربما بعيدا عن مرامي القصة. مع ملاحظة أن الرمز يمتاز ببعدين بُعد أنتجته الثقافة أو ما تواضع عليه جماعة من الناس والبعد الآخر هو ما يأخذه الرمز ضمن السياق وقد يتفق مع بعده المتفق عليه وقد يعارضه أو يختلف عنه من أجل أن يخدم هدف النص.

فالباحث مع أنه رصد التقابلات كما أشرنا إليها سابقا فإنه يهتم بتحديد العلاقة بين هذه التقابلات وما يمكن أن تنتجه هذه العلاقات. فلقد كانت التقابلات هبارة عن سلسلة بلا نتيجة أو من غير هدف وكثيرا ما كان الباحث يقع في مقاربته للنصوص مقاربة تأويلية في هذا المأزق وهو تحويل القراءة إلى مجرد رصد للتقابلات دون القدرة على تحليلها بالشكر الذي يصل إلى معاني النص أو تقابلات الهدف كما وسمها. بل يكتفي بشروح كافية لتكشف معاني النص الجاهزة.

انتقل بعدها إلى تقابل الأمكنة (النخلة): مكان تفريخ الحمامة، مستقرها رمز يقابله العلو والابتعاد عن الخطر/ الذي يربح يصعد دائما للأعلى. الحمامة ربحت المعركة فكان طبيعيا أن يكون مكانها هو الأعلى مقابل شاطئ النهر، مكان منبسط يختاره الراوي للحدث، يسلم المتلقي بإمكانية القضاء على الملك الحزين من طرف الثعلب، ذلك أنه لو اختار مكانا عاليا: شجرة أو نخلة لما أمكن تسلسل منطقي للحدث، شاطئ النهر هو المكان الذي يلقى فيه ماالك الحزين حتفه نتيجة سوء تدبيره وانطلاء الحيلة عليه، وكان الراوي يختار الاتجاه السفلي لمن يسير مسار مالك الحزين"(26).

إن تقابل الأمكنة نظر إليه الباحث من منظور سيميائي، لأن التقابل لا يمكن أن يوصل لشيء غير أن هذا التحليل تضمنته تناقضات. إن النخلة التي ترمز للعلو والخلاص

حسب رأي الباحث كانت في بداية القصة، قلعة بلا حصون جعلت الحمامة ترمي بفراخها للثعلب بمجرد التهديد والصراخ، وما كانت لتعلم أنها تحظى بهذا المكان الآمن الذي يجعلها تفوز وتربح العبة مثلما ظن الباحث، وهنا تظهر الحمامة مقابل الانسان الذي يمتلك قدرات هائلة وظروف مساعدة ولكن في كثير من الأحيان الخوف يمنعه من استغلالها أو توظيفها لنجاته من المأزق. وهذا بعض ما غفل عنه الكاتب، أما ما يتعلق بشاطئ النهر كمقابل للنخلة الآمنة والذي يعتبره الباحث ضرورة لا مناص منها لتسلسل الأحداث بشكل منطقي، هو أيضا تحليل يوجد ما يدحضه لأن الثعلب رمز الحيلة والخديعة ما كان ليعدم وسيلة لايقاع مالك الحزين حتى لو كان بأعلى النخلة كان سيحاوره بالشكل الذي يجعله يقترب منه وينقص عليه فيقول له مثلا: انزل وأرني كيف تفعل فأنا لا يتأتى لي رؤيتك وأنت بأعلى النخلة وأرغب في الاستفادة منك، أو قد يغريه بأية حيلة ليقترب منه. ولو فعل الراوي هذا لربما كانت القصة أبلغ لأن الحيلة تجلت في الحوار فهو يجسد ذكاء صاحبه وشدة دهائه وليس المكا هو السبب لأن مالك الحزين لو تفطن الى عدوه وفهم مقصده لما لقى حتفه وطار بعيدا من قبل أن يتمكن منه.

فالحوار حيلة لاستدراج مالك الحزين لحتفه وليس مكان تواجده أو الريح هي العامل المساعد في ذلك. وقد كان الثعلب يصرخ على الحمامة ويهددها لينال مراده، وهذا كاف لها لسذاجتها، لكن حين علم بمالك الحزين وما أسداه من نصيحة غير أسلوب الصراخ والتهديد مع الحمامة الخائفة والجبانة إلى لغة احتيال جديدة يستميل بها مالك الحزين الذي ظن نفسه ذكيا ناسيا أن الثعلب خصمه. ففي حياة الناس لا يسدي البعض النصيحة حتى لو استنصح مخافة الخصم إن كان قويا، وربما النصيحة العالية هي تجنبه والابتعاد عنه. لكن مالك الحزين لم ينصح الحمامة بذلك، فهل السذاجة صفة عامة في الطيور؟

كان الثعلب يريد أن يوقع مالك الحزين في فخه حين قال له (فأرني كيف تصنع؟ فلعمري، يا معشر الطير، لقد فضلكن الله علينا إنكن تدرين في ساعة واحدة، مثل ما ندري في سنه، وتبلغن ما لانبلغ، وتدخلن رؤوسكن تحت أجنحتكن من البرد والريح، فهنيئا لك، فأرني كيف تصنع "هذا الكلام الذي يتضمن مديحا لمالك الحزين وكل جنسه (الطير) زرع في نفسه ثقة ساقته للهلاك وأراد أن يثبت للثعلب ماهو به أعلم. وهنا أيضا معنى جميل للذين يغترون بقدراتهم فيرديهم ذلك الخطر إلى خطر عظيم وما أكثر هذا النوع . ويصبح عندها صنيع الحمامة ومالك الحزين على مستوى تقابل النقيض هي غير واثقة من قدراتها وهو واثق درجة الغرور والنتيجة كانت واحدة الهلاك.

وعليه فالمعاني في هذه القصة كثيرة بل حتى التقابلات قد تتجلى كلما تعمقنا في الفهم أو بتعبير الباحث فإن التقابلات الصغرى والكبرى تؤدي في نهاية المطاف إلى تقابلات الهدف التي لم يستطع هو الوصول إليها لتقيده بهدف ومقصد القصة المذكور منذ البداية.

أما عامل الريح فيمكن اعتباره "رمزا مقابلا للقوة المهددة لمصير المرموز إليه بمالك الحزين، الإنسان الذي يرى الرأي لغيره ولا يراه لنفسه"(27). هذا رأي الباحث الذي كان همّه الوحيد أن يجد التقابلات التي تخدمه في النص لأن الريح كانت مجرد خدعة في سياق الحديث ولا تظهر في القصة على أنها رمزا مقابلا للقوة مهددا لمالك الحزين لأن الذي أوقع هذا الأخير في حتفه هو تصديقه لكلام الثعلب وإعجابه بنفسه التي أراد أن يثبت لها الذكاء والحكمة، بالشكل الذي أظهر فيه منتهى الغباء، فأثناء الحوار لم تكن هناك أية ريح وإلا كان الثعلب سيجد مالك الحزين جاهزا دون حيلة أو مكيدة، وتصبح هنا الظروف هي المسير للأحداث بحيث تخدم طرفا دون الآخر. لكن الريح هي حيلة استخدمها الثعلب لعلمه بطريقة عيش الطيور. ومنه نستنتج أنه للتخلص من العدو يلزم التعرف على نقاط قوته وضعفه هذا من جهة، ومن جهة اخرى فإن ما حدث لمالك الحزين يفضح فئة من الناس تدعي الذكاء والحكمة وتتباهى بهما أمام الخلق، وهي في حقيقتها دون ذلك بالشكل الذي يقودها للخطر أو الهلاك فتفضح نفسها، فلو ثبت ذكاء مالك الحزين لما انطلت عليه الحيلة وبهذه البساطة. وهنا تقابل بين الذكي حقيقة وفي كل المواقف وبين الذي يدعي ذلك فقط.

يؤكد الباحث في نهاية القراءة التأويلية التقابلية أنه استطاع الوصول إلى حدود إبراز الملاءمة بين الرموز والمرموز له، واستنتاج خلاصات وآراء(28).

بعد ما تتبعنا قراءة الباحث محمد بازي للقصة، يلاحظ أنه - برأي أحد الدارسين - لم يوفق في إبراز هذه الملاءمة بين المرموز والمرموز إليه خاصة ما تعلق بالأمكنة وحتى شخص الحكاية، وهذا عرقل وصوله إلى التقابلات الهدف بالشكل الذي يسمح بتأويل أعمق من الفكرة الواضحة للقصة وهي تقديم النصيحة للغير والعجز بها عن النفس، لأن هذا المعنى يلفا مصرح به منذ البداية. واكتفى الباحث بإثبات ماهو مثبت بطريقة التقابلات، فلم تكن رحلة سفره في عالم النص مغامرة تبحث عن مكامن المعاني فيقف التأويل عند المعاني البسيطة والواضحة والتي ربما لم يقصدها صاحب النص، فإذا بها تساهم في بناء عوالم جديدة للمعنى وهي تتناسب مع القصة ولا تخل بنظامها، لأن القصة على بساطتها تضمنت معاني كثيرة يمكن أن تشكل تقابلات مع الواقع كما يريد الباحث ولم يصل إليها. ومع أن أي نص له مقصد عند صاحبه قد يبدو واضحا لكن هذا لا ينفي أن وهناك مقاصد أخرى

سيبوح بها النص رغما عن صاحبه لا لشيء سوى لأن اللغة بطبيعتها حمّلات أوجه لذا هي على الدوام تأويلية بطبعها.

ورغم أن الباحث يرى أن حكايا (كليلة ودمنة) تشكل تقابلا تتابعيا، وتقابلا تعالقيا وتتميميا، وكأنها مقاطع صغرى في بنية سردية كبرى، إلا أنه لم يقف عند هذه التقابلات المهمة فيما تعلق بحكاية (الحمامة ومالك الحزين) لتبين موقع القصة وأهميتها بالنسبة للبناء السردي العام لمجموع الحكايات، وانتقل مباشرة للحديث عن خاتمة الكتاب، وخلص إلى "أنه مملكة للتقابلات الحياتية والرمزية تنطلق من المكتوب المتخيل أو المفكر فيه، فتكون القراءة عملية مراوحة بين عوالم المكن وعالم القارئ، ينتقل القارئ بينهما عبر لغة النص وتداخل حكاياته وعوالمه الممتعة. الكتاب نهر ممتلء بالمعنى يسقي ضفافه المتقابلة، فتخضر وتزهر أشجارها عبر التأويل، الذي يحيل قارئه إلى جزائر المغازي والمعاني البعيدة"(29). هذا ما يتصوره الباحث لكن ما قدّمه كمقاربة تأويلية تقابلية ما أزهرت أشجارها لتحمل القارئ عبر التأويل إلى جزائر المغازي والمعاني. فما قيمة التأويل التقابلي إن كان غرضه رصد التقابلات والنظر إليها بأي منهج تأتي للمؤوّل؟ وكثيرا ما يترك الأمر للسيميائية لأن التقابلات في حد ذاتها محض علامات، وأحيانا تستخدم البنيوية لتحليل المكون الدلالي لبعض الكلمات، فالمهم الوصول إلى التقابلات والتي بدورها عملية انتقائية غير مبررة قد يخطئها المؤوّل حتى وإن كان مؤوّلا بليغا على حد قول الباحث، وبالتالي سينحرف ويضل طريقه إلى المعنى، لأنه لا توجد طريقة واضحة للتعامل مع التقابلات إنها مجرد آلية لتبرير الفهم المسبق لتأويلات لم تسهم عملية الفهم بالتقابلات في ايجادها، بل العكس الفم سابق عن التقابلات وفي غيابه يتعذر إيجادها . فليس النص هو الذي يمنحنا التقابلات جاهزة بل القراءة الواعية المجلبة لمعاني النص هي التي توصلنا إلى ذلك وحين يخفق المؤوّل قراءته سيكون هناك تعسف في التقابلات وخلط في تبرير وتفسير عملية الفهم.

الخاتمة

بعد هذا الطرح لنظرية التأويل التقابلي يمكن أن نخلص إلى أن:

- الباحث بذل جهدا في تأصيل نظريته من خلال عودته للمدونة التراثية والاستفادة من مناهجها كما بدا جليا في تجربته مع المفسرين والشرّاح من جهة ومن جهة ثانية استثماره للمبحث البلاغي القديم (التقابل) باثرائه بأنواع جديدة من التقابل وتوسيع مفهومه لتنبني عليه نظرية تأويلية يمكن الاستفادة منها في قراءة النصوص على اختلاف أنواعها.

- هذا النظرية دليل على أصالة الباحث وجرأته في تحويل عمل المفسرين والشرّاح إلى قاعدة انطلاق نحو نظرية تأويلية متكاملة في تصورها.

- بعد أن كان التقابل مبحثا يخدم تساندية الدوائر الصغرى والكبرى أصبح تصورا للكون المتقالب الذي ينعكس على مرآة العقل المفكر بالتقابل لينتج النص المتقابل في بنيته مستدعيا التأويل التقابلي لإعادة قراءته، شريط أن يكون هناك المؤول البليغ الذي تحققت فيه الكفاية التأويلية.

- مع أن بعض فرضيات النظرية لها ما يدعمها في أرض الواقع والتفكير والنص لكن لا يمكن تعميمها كحقائق مطلقة استطاع الباحث الوصول إليها. بل كان الأفضل له لو استغنى عن ضياع جهد يثبت ما يتعذر إثباته، فلم يكن الباحث مجبرا على إثبات الكون المتقابل حتى يبرر منطلقات نظريته ولا تعد الفكرة في حدّ ذاتها ضرورية لإثبات صحة النظرية، غير أن طموح الباحث في توسيع نظريته التي تفترض أن تكون خاصة بالنص والخطاب جعله يتتبع فكرة التقابل في الكون والتفكير العقلي ولكلا المجالين يتعذر فيهما البحث بهذه البساطة التي لا تسندها حقائق علمية تدعمها التجارب، بل مجرد ملاحظات وتحليل استهدف بعض النماذج والأمثلة التي يوجد ما يدحضها، كما أنها خارجة عن تخصصه وتحتاج إلى جهود من مختلف التخصصات.

- ختاما الباحث قدم تجربة غنية هي (نظرية التأويل التقابلي) تضمنت مفاهيم كثيرة تستحق الوقوف عندها والاستفادة منها لفهم النصوص والخطابات، انسجمت بجهازها المفاهيمي مع ثقافتنا العربية لانطلاقها من المدونة التراثية ومن مناهجها ومباحثها، ثم استثمارها على ضوء الدراسات الحديثة العربية منها والغربية، وعليه فإننا نشجع الباحثين للإقبال على هذه النظرية والاهتمام بها ومحاولة تطويرها وسد ثغرات الضعف فيها لتصبح بديلا قادرا على مضاهاة النظريات الغربية، وهذا ما دعا إليه الباحث.

الهوامش

01. محمد بازي: نظرية التأويل التقابلي، مقدمات لمعرفة بديلة بالنص والخطاب، منشورات الاختلاف، الجزائر، ومنشورات ضفاف- بيروت، ط1، 2013، ص. 37.
02. المرجع نفسه. ص. 142.
03. عبد الغني بارة: الهرمينوطيقا والفسفة- نحو مشروع عقل تأويلي، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2008، ص/ص. 182-183.
04. مصطفى عادل: فعم الفهم مدخل إلى الهيرومنوطيقا - نظرية التأويل من أفلاطون إلى كادمير، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2007، ص. 100.
05. محمد بازي.
06. المرجع نفسه.
07. المرجع نفسه.
08. المرجع نفسه. ص. 222.
09. المرجع نفسه. ص. 47.
10. المرجع نفسه. ص. 35.
11. المرجع نفسه. ص/ص 37-38.
12. المرجع نفسه. ص. 66.
13. المرجع نفسه. ص. 69.
14. المرجع نفسه. ص. 91.
15. سورة يس، الآية 36.
16. محمد بازي. ص. 64.
17. سورة الزخرف، الآية 12.
18. محمد بازي. ص. 66.
19. محمد بازي. ص. 375.
20. محمد بازي. ص/ص 377-378.
21. بوبكر الصادق سعد الله ومصطفى هواري: الجديد في الأدب والنصوص والمطالعة الموجهة، للسنة الثانية من التعليم الثانوي العام والتكنولوجي، الديوان الوطني للمطبوعات المدرسية، 2012/2011، ص/ص. 379-380.
22. محمد بازي. ص/ص. 379-380.
23. المرجع نفسه.
24. المرجع نفسه. ص. 380.
25. المرجع نفسه.
26. المرجع نفسه. ص/ص. 382-383.

27. المرجع نفسه. ص. 383
28. المرجع نفسه. ص/ص. 383-384.
29. المرجع نفسه. ص/ص. 385.

قائمة المصادر والمراجع

- القرآن الكريم
- بوبكر الصادق سعد الله ومصطفى هواري: الجديد في الأدب والنصوص والمطالعة الموجهة، للسنة الثانية من التعليم الثانوي العام والتكنولوجي، الديوان الوطني للمطبوعات المدرسية، 2012/2011.
- عبد الغني بارة: الهرمينوطيقا والفسفة- نحو مشروع عقل تأويلي، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2008.
محمد بازي: التأويلية العربية، نحو نموذج تساندي في فهم النصوص والخطابات، منشورات الاختلاف، الجزائر، ومنشورات ضفاف، بيروت، ط1، 2013.
- محمد بازي: نظرية التأويل التقابلي، مقدمات لمعرفة بديلة بالنص والخطاب، منشورات الاختلاف، الجزائر، ومنشورات ضفاف- بيروت، ط1، 2013.
- مصطفى عادل: فعم الفهم مدخل إلى الهيرومنوطيقا - نظرية التأويل من أفلاطون إلى كادمير، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2007.